كده كُنا ياحارة الشيخ

خَلِّي الطَمَعْ ينْفَعَك..!!

بيوت جدة القديمة (التاريخية) متلاصقة في أزقة محصورة يطل بعضها على بعض وتجتمع فيها كل أواصر القربى والمحبة والتقدير والاحترام.. كل الجيران يعرفون بعضهم البعض ويتزاورون في المناسبات وغير المناسبات.. ويتزوجون ويفرحون ويحزنون في وقت واحد.. وكأنها مظاهرات تخرج من كل البيوت فرحاً وترحاً..

ليس هناك هنداوية، أو بغدادية، أو صحيفة، أو كندرة.. فالكلام هنا قبل أن تأتي أفواج الوافدين إليها من جنوب المملكة أو من وسطها أو من شرقها وشمالها.. أو من مواطني الدول الإسلامية.. محصورة في أبواب أربعة واسوار معروفة.. **بَابْ جَديدْ شمالاً، وبَابْ شَرِيفْ جنوباً، وبَابْ مَكّة شرقاً، والبُنْط غَرباً.**

يتدفق حجاج بيت الله الحرام.. عبر بوابة جدة الغربية حيث البُنْط وتسعى السّواعي (المراكب الشراعية) إلى وسط البحر حيث تقف السفن الكبيرة التي تحمل حجاج بيت الله الحرام.. ويُستقبل الحُجّاج بفرحة كبيرة في بيوت وُكَلاء المُطَوّفين وتمتلأ كل البرحات الموجودة فيها بأفواج من المخيمات أحياناً وتؤجّر البيوت وتسعد المدينة بزوراها.. ويعمل الجميع لإرضاء الحاج والقيام بواجبه والاهتمام به.. لم أصادف في حياتي منذ أن عرفت هذا المنظر أن يقع خلاف بين الحاج ومواطني هذه المدينة.. وتكون الألفة بين العائلات وتُستَحْدَثُ الأكلات القادمة من كل صوب لتشكل نوعاً جديداً من المسميات المعروفة لدى أهلها..

فالأكل الجَاوي والهِنْدي والبُخَاري والمَغْرَبي وغيرذلك يدخل البيوت لتشكل المائدة الجديدة في عرف هذه المدينة..

لم يخالجني في العمر الصغير الذي كنت فيه آنذاك أي شك بوجود فرق بين غني وفقير ومهنة ومهنة.. وجاهل ومتعلم فربما هذا يكون الخَال والعَمْ أو الإبن أو الصديق والأخ ولكني كنت أرى الفرق فقط بين جديّة في الرّجُولَة وابتسامة لا تخلو من عَفْرَتة والكل يعرف مقامه ومكانه وقَدرته.. والعجب أن الصغير يحترم الكبير ليس لِماله أو علمه أو سُطْوته أو أناقته وإنما لأنه كبير وهنا أعني (**في العُمُر**).

الاختلاف الذي كنت أراه واضحاً هو مُحتوى البيوت.. فداخل البيت يعّبر عن محتواه وغنى صاحبه وذوقه وعلْمه وتجَارَته فذاك بيْتٌ فيه كثيرٌ مما لا أراه عند الآخرين من أناقة الأثاث وجمال السجَاجيد ونظافة يؤديها عاملون في البيت.. حسب طبيعة صاحبة البيت.. فربما يكون ماً في البيت خمسة اشخاص وخادموهم ستة أشخاص أو سبعة..

ولكي أصل إلى الصورة التي أريدها.. أود أن أذكر أن الأغنام في الأزقّة والدّيكة والدّجَاج والحَمير وكل أنواع المخلوقات المستخدمة أو المؤذية أو غيرَ الأليفة.. الكل يعرف الكل **أما القطط فإن لها حُرّيَة**.. فإن دورها معروف ومرغوب لذا فإن كل بيت فيه قطة يحبها الصغار ويعطف عليها الكبار وتعيش بين العائلة وتقوم بواجباتها لحماية أهل البيت من القوارض وغيرها.. وتعتبر القطة أحد افراد العائلة في كل بيت تقريباً.

في بيت يعتبر من أثرى البيوت في مدينة جدة.. فالصيانة الدورية على الرّوَاشين وألوان الأبواب التي تزدان بالتجديد المستمر ونظافة المدخل ومساحة الجلسة الخارجة من الداخل والمقاعد التي تزدان بأصحاب صاحبها.. كل ذلك يقوم بإعطاء الوجه المريح لسكانه ومكانتهم اجتماعياً ومادياً وأخلاقياً ومحبةً.. وتقديراً..

تقطن في هذا البيت مع أهله قطّة ولكنها من نوع آخر (**قطة فاخرة**) ربما أتت من جنوب شرق آسيا.. من الهند أو الصين أو ماليزيا.. لها شعر أبيض كثيف وشامَةٌ على رأسها سوداء تزيدها جمالاً وذيلاً مزدوج اللون بين الأسود والأبيض تحظى هذه القطة والتي يطلق عليها (لَبَنيّة) (للونها الأبيض الناصع) بدلال وحنان جميع أفراد الأسرة.. الكل يهتم بها.. صوتها منخفض يتلاءم والجو العائلي.. تمشي الهوينا.. متنقلة بين الصوالين وغرف النوم تعتبر واحدة من الأسرة لا تعرف غير هذا البيت وأهله.. بعض الضيوف المقربين يفتقدها ويسأل عنها ويدللها ويحضنها إما إعجاباً بها أو إرضاءاً لأهل البيت.. فإن قطة البيت هي البيت أو كأنها صاحبة البيت..

صبيحة يوم خرجت قطتنا لَبَنيّة من الباب الرئيسي إلى الشارع..

تجوب أزقة جدة وترى ما لم تره من قبل.. وقع نَظَرُها عند مُنعطف بيت قديم نوافذه مغلقة وأتربة تغطي جدرانه.. خال من أية حركة تدل على أن هناك من يقطنه.. تأمّلت هذا المنظر الذي لم تعهده ولا تعرفه.. دارت عيناها حولها ربما تجد من يحن عليها ويربت على شعرها الكثيف ويحتضنها وربما يقبلها.. ولكنها رأت قطة نحيفة هزيلة ضعيفة تنظر على جحر بجوار فتحات الجدران السفلية متحفزة لدخول معركة رغم ضعفها ولكنها تُمْني نفسها بالانتصار وتعيش في خيال كسب المعركة.. تقدمت إليها وسألتها: «هل أنت قطة من بني قطْ ؟!» قالت لها: «نعم انا قطة من بني قط واسمي سُوقيّة».. «ما اسمك؟» قالت: «لَبَنيّة»..

ضحكت سُوقيّة وقالت لها «مَعَهُم حَقْ في تسميتك.. **فأنت لَبَنيّة في كل شيء.. ولَو كنت في غير جدة كنت فعلاً لَبَنيّة في ذوق من يأكلون القطط**»..

لَبَنيّة: «وهل هناك من يأكل القطط؟»

قالت سُوقيّة: «نعم.. يبدوا أنك تعيشين في عالم آخر»..

قالت لَبَنيّة: «ماذا تنتظرين هنا بتحفز وبشراسة؟»..

قالت سُوقيّة: «انتظر الفأر الذي دخل هذا الجحر ليخرج.. إنه وجبة دسمة لي هذا اليوم يكفيني عناء التجوال..

قالت لَبَنيّة: هل هذه وجبتك؟.. أراك في حال من الضعف وتكادين تلفظين أنفاسك من الإعياء ألا تأكلين وتشربين وتنامين؟ كأنك في معركة مستمرة لا تهدأ.. ففيك تحفز وضعف وشراسة»..

قالت سُوقيّة: «إني مكافحة أسهر الليل بين مخلفات الطعام وأتسلق جدران البيوت وأبحث عن مأكلي ومشربي من المياه المهدورة في الأزقة.. أتلقى الزجر والضرب والطرد والإهانة من الجميع ألا ترين أنهم يسمونني سُوقيّة.. إني أعمل وأعيش وأشقى بكد وعنت لأنال رزقي هذا سبب ما ترينه من حالي، أما أنت أيتها اللّبَنيّة الجميلة المدللة على السرير الحرير والعيش الوفير والحنان والأحضان لا أرى فيك لمحة حزن فعيونك تزدان ببريق النعمة والعز صوتك منخفض ومشيتك معتدلة وكأنك تحاكي الأرض لتقولي لها.. انظري من عليك.. **فلتحمدي الله أن مثل جمالي يسير على تربتك**»..

قالت لَبَنيّة: «وقد أعجبها الثناء.. إني أرى أن الفقر أكسبك حكمة وصبراً ونظرة ثاقبة ومعرفة وقوة في التعبير والبيان..

فهل لي بمرافقتك لأرى وأتعلم منك ويكون هذا اليوم ذكرى تبقى معي أستفيد منه وتؤجرين عليه؟»

قالت سُوقيّة: «كيف يمكن لك مرافقتي؟ سوف أنال ضرباً وشتماً وطرداً.. يعتبرونني فساداً ووصمة عار عليك.. بينما يأخذونك بالأحضان والقبل.. لا أستطيع.. ولن تستطيعي.. فالأمر بيننا مختلف شكلاً وموضوعاً».. وأخذ الحوار بينهما.. هذه ترجو والأخرى ترفض..

في النهاية قالت سُوقيّة: «اتركيني الآن لأتفرغ لمهمتي».. وفي أثناء الحوار خرج الفأر من الجحر مسرعاً وهرب من أمامهما.. فالتفتت سوقية إلى لبنية وقالت بحسرة وألم وإنكسار: «أرجو أن تذهبي إلى حيث كنتِ.. **فإن الحديث معاكي يقْطَعْ الرزْقْ**»..

ذهبت سُوقيّة مكسورَة الخاطر تبحث عن رزق جديد..

قابلها القط (العُرّي) وقال لها: «مالي أراك حزينة مهزومة؟».. قالت: «انظر إلى تلك القطة في الجانب الآخر اسمها لَبَنيّة وتعيش في داخل هذا البيت مع أهله وكأنها واحدة منهم..» وحكت له قصتها وانتهت بأن الكلام معها قَطَعَ رزْقها..

قال القط السوقي: «ولكنها رزْقي».. وانطلق ليلحق بها في حين مرت **عَرَبَة كَرّو يجُرّها حمار مُتعافٍ سريع**.. ضربه على رأسه بحافره فأرداهُ قتيلاً..

ونظرت إليه سُوقيّة وقالت له: «كُنْت قُدّامَكْ.. هيّا خَلّي الطّمَعْ يِنْفَعَكْ»..

ورأت لَبَنيّة داخِلَة إلى بيتها فقالت:

«قَطْع أرْزَاق وقَطْع أعْنَاق كمان..!!»

أحمد حسن فتيحي
جدة - تليفون ٥٠٥ ٦٥١٧ - ٠١٢ / فاكس ٨٦٠ ٦٥١٤ - ٠١٢
pr@fitaihi.com.sa